اجتهادات
الشيوعى الأخير

كُتب وقيل الكثير عن شعره وإسهاماته على مدى أسبوع منذ رحيله، بما يليق بأحد عمالقة الشعر العربى فى القرن العشرين. بلغ سعدى يوسف فى الإبداع الشعرى مبلغًا رفيعًا. وكان فى إمكانه أن يصل إلى مرتبة أعلي، لولا انغماسه فى العمل السياسي، انطلاقًا من خلفية ماركسية جذرية (راديكالية)، وحلم شديد المثالية بوطن متحرر من مختلف الأغلال، وعالم يسوده العدل والحرية.

لا يعيب المُبدع أن يكون له اتجاه ورأى وموقف، بل على العكس كثيرًا ما يكون إيمانه بقضية دافعًا إلى مزيد من الإبداع، حين يحافظ على مسافة معقولة من التفاعلات المباشرة المرتبطة بها.

غير أن هذه المسافة كانت جد قصيرة فى حالة سعدى يوسف الذى اعتنق الماركسية بعد قراءة فى العمق، وليس من السطح, بخلاف أغلبية ساحقة من الشيوعيين0 وانضم إلى الحزب الشيوعى العراقي، ثم صُدم فيه أكثر من مرة. وما أشده أثر الصدمات فى شاعر مُرهف الحس وشديد الإيمان بما صُدم فيه.

ولكن الانغماس فى السياسة لم يكن ضارًا كله. وبمقدار ما عطله فلم يطرق آفاقًا شعرية كان فى إمكانه أن يبلغها، ألهمه شعرًا يندر مثله لأنه مكتوب بعُصارة قلب اعتصره الألم. خذ مثلاً ديوان (الشيوعى الأخير

فقط)، الذى بحثتُ عنه عدة أشهر حتى وجدتُ قبل سنوات الطبعة الصادرة عن دار التكوين السورية عام 2010.

ويُعبر هذا الديوان عن نظرته إلى تجربته السياسية وقدرته, رغم كل الخيبات, على التمسك براية سقطت، وحلم أفل، والإصرار على أنه لن يكون الشيوعى الأخير. نقرأ فيه: (سأستقيل اليوم .. لا حزب شيوعي، ولا هم يحزنون! أنا ابن أرصفة .. وأتربة .. ومدرستى الشوارع .. والهتاف .. ولسعة البارود إذ يغدو شميمًا .. لم أعد أرضى المبيت بمنزل الأشباح .. حيث ستائر الكتان مُسدلة .. وحيث الماء يأسن فى الجدار .. ونفقد الصور المؤطرة الملامح .. أستقيل وابتنى فى خيمة العمال .. مطبعةً .. وركنًا .. سوف أرفع رايتى خفاقةً فى ريح أيلول .. مع الرعد البعيد .. ومدفق الأمطار .. أرفعُها .. ولن أُدعى الشيوعى الأخير..).